



الآراء النفسية عند مسكويه

د . محمد عبد الظاهر الحليب

كلية التربية - جامعة طنطا

«ان علم النفس كان له شرف على سائر العلوم، لأن الانسان يجب ان يبدأ بتعرف نفسه قبل أن يعرف أي شيء آخر»
(مسكويه - رسالة في جوهر النفس)

مقدمة

أما عن كنيته فهي أبو علي، ولعل اختيار هذه الكنية يتفق وما لمسكويه من التشيع لعل بن أبي طالب كرم الله وجهه (العالمي، ١٩٣٨، ص ١٠، ص ١٤٤). وعاش مسكويه في أصفهان ومات بها في صفر ٤٢١هـ (١٦ فبراير ١٠٣٠م) (الزركلي، ١٩٥٤، ص ٢٠٤ - ٢٠٥).

ويقول ابن الخطيب في مقدمة «تهذيب الأخلاق» لقد قرأت - فيما قرأت - أبوابا من هذا الكتاب برمتها في احياء علوم الدين للامام الغزالي، فظننت - باديء ذي بدء - أن ابن مسكويه توفي في عام ٤٢١هـ في حين أن الغزالي قد توفي في عام ٥٠٥هـ فيكون ابن مسكويه أسبق من الغزالي، وبذلك يكون الغزالي هو الناقل عن ابن مسكويه، وكفاه ذلك فخرا، ومحمده (ابن الخطيب في مقدمة تهذيب الأخلاق).

مسكويه هو أحمد بن محمد بن يعقوب: و«مسكويه» هو لقبه (عبدالعزیز عزت، ١٩٤٦، ص ٨١). ولقد لقب بالمعلم الثالث، حيث لقب الفارابي بالمعلم الثاني، لأنه خليفة المعلم الاول أرسطو (ابن خلدون، ١٣٢٩هـ، ص ٥٣٧). ومسكويه هو المفكر الاسلامي الأول في الميدان العملي للأخلاق. وأغلب الظن أن مسكويه ولد عام ٣٢٥هـ (عبدالعزیز عزت، ١٩٤٦، ص ٧٩).

وقد ولد في مدينة «الري» وهي مدينة فارسية مشهورة ظهر فيها كثير من المفكرين مثل محمد بن زكريا الرازي (توفي ٣٢٠هـ) والفخر الرازي (توفي ٦٠٦هـ) وهي مدينة طهران اليوم (بارتولد Bartold، ١٩٤٢، ص ٧٣).

ولكن النفس تدرك أسباب الاتفاق والاختلاف التي من المحسوسات. وهي معقولاتها التي لا تستعين عليها بشيء من الجسم ولا آثار الجسم» (مسكويه، ١٩٥٩، ص ٨).

«والنفس بطبيعتها، توافقه الى المعرفة، وتكذب الحواس، فتميز منها الصادق والكاذب» (مسكويه، طهارة النفس، ص ٣).

أي أن الانسان عبارة عن نفس وبدن «والنفس تحرك البدن، والانسان انسان بنفسه وبدنه معاً، والجسم والنفس متصلان ومتعاونان، وكثيرا ما يظهر أثر أحدهما في الآخر، فإن الاحوال النفسية تغير مزاج البدن ومزاج البدن أيضا يغير أحوال النفس. (مسكويه وأبو حيان التوحيدي، ١٩٥٩، ص ٢٣٢).

قوى النفس الانسانية :

يرى مسكويه أن الناظر في أمر هذه النفس وقواها يتبين له أنها تنقسم الى ثلاثة :

١ - القوى التي بها يكون الفكر والتمييز، والنظر في حقائق الامور. وقد أطلق عليها مسكويه القوة العاقلة وأوضح أن فضيلتها الحكمة.

٢ - القوة التي بها يكون الغضب، والاقدام على الأهوال، والشوق الى التسلط والترفع، وضروب الكرامات. وقد أطلق عليها مسكويه القوة الغضبية أو السبعية وأوضح أن فضيلتها الشجاعة.

٣ - القوة التي بها تكون الشهوة وطلب الغذاء، والشوق الى الملاذ التي في المأكول

يتكون الانسان عند مسكويه من نفس وجسم، والنفس عنده ليست جسما، ولا جزءاً من جسم، ولا حالا من أحوال الجسم، ولكنها شيء آخر، مفارق للجسم بجوهره، وأحكامه، وخواصه (مسكويه، ١٩٥٩، ص ٤) والدليل على ذلك «أن كل جسم له صورة ما، فإنه ليس له صورة أخرى من جنس صورته، الا بعد مفارقتها الصورة الاولى مفارقة تامة... فالشمع اذا قبل صورة نقش في الخاتم، لم يقبل غيره من النقوش الا بعد أن يزول عنه رسم النقش الأول... ونحن نجد أنفسنا تقبل صور الأشياء كلها، على اختلافها من المحسوسات، والمعقولات، على التمام والكمال، من غير مفارقة للأولى، ولا زوال رسم، بل يبقى الرسم الأول تاماً، كاملاً، وتقبل الرسم الثاني أيضا تاماً كاملاً. ثم لا تزال تقبل صورة بعد صورته، ابدا دائما من غير أن تضعف، أو تقصر، في وقت من الأوقات عن قبول ما يرد، ويطرأ عليها من الصور (مرجع سابق، ص ٧-٨).

والدليل أيضا على أن النفس مغايرة للجسم «أنها تتصور الشيء وضده، كالبياض والسواد، والروائح والطعوم، وتزداد بتحصيلها للمعلومات العقلية قوة على قبول غيرها. وقوة الجسم لا تعرف العلوم الا من الحواس، ولا تميل الا الى المحسوسات، ولكن النفس كلما تحللت من الحواس، ازدادت كمالا. وانصرفا النفس عن الامور والذات الجسمانية بدلنا دلالة واضحة على أنها من جوهر أعلى وأكرم جدا من الجسم» (طهارة النفس، ص ٢-٣) «وأیضا فإن الحواس تدرك المحسوسات فقط،

حيوانية غضبية، وإن فعلت التمييز والتفكير سميت ناطقة (مسكويه، طهارة النفس، ورقة ٣٥).

ويقسم مسكويه النفس العاقلة الى:

١ - عقل نظري يسهل على الانسان تحصيل العلوم والمعارف المختلفة.

٢ - عقل عملي يساعد الانسان في تنظيم الأمور وترتيبها.

(مسكويه، ١٩٥٩، ص ٤٧-٤٨).

«وحسب دراسات النفس بهذا الوضع يقسم مسكويه الفضائل تقسيما أساسه إفلاطوني، لأنه يعتمد على تمييز قوى النفس الثلاثة، وليس على الانفعالات والأفعال كما نجده عند أرسطو، ولهذا كان عدد الفضائل الأساسية محدودا وهي الفضائل الأربعة الكبرى، نريد بذلك الحكمة والشجاعة والعفة والعدل. ولكن تسميته لأجزاء تقسيمه العام أرسططاليسية، فهو يسمي هذه الفضائل الأربعة، الفضائل الخلقية الانسانية، ويضيف إليها - كما يفعل أرسطو - الفضائل النظرية التي تخص العقل في وظيفته التجريدية (عبد العزيز عزت، ١٩٤٦، ص ٢٧٥).

الفروق الفردية عند مسكويه (مراتب الناس في قبول الآداب):

يقول مسكويه (١٩٥٩، ص ٣٤-٣٥) «أما مراتب الناس في قبول هذه الآداب التي سميناها خلقا، والمساعدة الى تعلمها، والحرص عليها، فلإنها كثيرة، وهي تشاهد وتعاين فيهم، وخاصة في الأطفال، فإن أخلاقهم تظهر فيهم منذ بدء نشأتهم، ولا يسترونها بروية، ولا فكر - كما يفعل الرجل التام -

والمشارب والمناكح وضروب اللذات الحسية. وقد أطلق عليها مسكويه القوة الشهوانية أو البهيمية وأوضح أن فضيلتها العفة. (مسكويه، طهارة النفس ورقة ٣٦).

والانسان صار انسانا بأفضل هذه النفوس أي العاقلة (مسكويه، ١٩٥٩، ص ٤٧). وأوضح مسكويه أن النفس البهيمية معنا من أول النشوء ومع الولادة، ولذلك كانت قوتها أشد، ويظهر أثر النفس الميزة بقوة العقل من بعد قليلا قليلا الى أن يقوى في وقت البلوغ. وإن طبيعة النفس البهيمية الانقياد للناطق (العاقلة). «ولولا أن ذلك في جبلتها وطبيعتها وهو قبول التربية لكان تكليفا بخلاف ما في الطبع» (مسكويه وأبو حيان التوحيدي، ١٩٥١، ص ١٤٩-١٥٠). ويقسم مسكويه هذه القوة من حيث قبول التربية (الأدب) أقساما ثلاثة:

١ - الكرعة الأدبية بالطبع وهي النفس الناطقة (العاقلة).

٢ - العادمة للأدب وهي مع ذلك غير قابلة له وهي النفس البهيمية.

٣ - التي عدمت الأدب ولكنها ثقيلة، وتنقاد له، وهي النفس الغضبية التي وهبنا الله إياها لنستعين بها على تقويم البهيمية التي لا تقبل الأدب.

(مسكويه، ١٩٥١، ص ٥٣)

والنفس في الحقيقة واحدة وإن تعددت قواها ووظائفها وتسمياتها، فهي أسماء تقع على نفس واحدة، بحسب أفعالها المختلفة: فإن فعلت في الجسم الغذاء سميت نباتية وشهوانية، وإن فعلت الحس والحركة سميت

الذي انتهى من نشته وكماله، الى حيث يعرف من نفسه ما يستقبح منه فيخفيه بضروب من الخيل والأفعال المضادة لما في طبعه.

وأنت تتأمل من أخلاق الصبيان، واستعدادهم لقبول الأدب، أو نفورهم عنه، أو ما يظهر في بعضهم من القحة، وفي بعضهم من الخياء. وكذلك ترى فيهم من الجود، والبخل، والرحمة، والقسوة، في قبول الأخلاق الفاضلة، وتعلم معه أنهم ليسوا على رتبة واحدة، وأن فيهم المواتي، والممتنع، والسهل السلس، والفظ العسر، والخير والشرير، والمتوسطون بين هذه الأطراف في مراتب كثيرة لا تحصى.

وقد أوضح مسكويه أن هناك فروقا فردية بين المتعلمين من حيث تقبلهم لمختلف العلوم والآداب:

١ — فبعض التلاميذ عندهم قدرة قوية وصادقة على التخيل، فهم يصلحون للعلوم التي تحتاج هذا التخيل.

٢ — وآخرون منهم يتميزون بالتفكير الصحيح، فتناسبهم الدروس التي تحتاج صحة التفكير.

٣ — وفريق ثالث من المتعلمين يتميزون بالتفكير الجيد، بالإضافة الى قدرتهم على الحفظ.

٤ — وفريق رابع منهم يجمع كل الصفات السابقة وهم قليلون (وقد يقصد بهم العباقرة).

٥ — والفريق الأخير الذي لا تتحقق فيه واحدة من الصفات السابقة، وهم لا يصلحون لتعلم العلوم (وقد يقصد بهم فئات التخلف العقلي). (مسكويه، الموامل والشوامل، ص ١٦٥-١٦٦).

هذا من ناحية الفروق بين الأفراد، أما الجماعات والأمم، فيرى أنها تتفق في تفكيرها الجماعي، فضيلة الصدق في القول مثلا تتفق عليها كل الأمم. وكذلك الشجاعة والعدل.. الخ.

يقول مسكويه «المقصود أن تعلم أن عقول الأمم كلها تتوافر على طريقة واحدة، ولا تختلف باختلاف البقاع، ولا تتغير بتغير الأزمنة، ولا يرددها راد على الدهور والأحقاب» (مسكويه، ١٩٥٢، ص ٥٩).

النمو النفسي للطفل:

يرى مسكويه أن «نفس الطفل» هي حلقة بين نفس الحيوان ونفس الانسان العاقل، أي عندها ينتهي أفق الحيوان وبيتيدي أفق الانسان، وهي تسير في تطورها وفق ما يلي:

١ — هي في أولها ساذجة من غير نقش (مسكويه، ١٩٥٩، ص ٥٨). وهي مستعدة للتربية، وصالحة للعناية ولا يجب أن تهمل (مسكويه، طهارة النفس، ورقة ٤٠).

٢ — تظهر فيها القوة البهيمية وقد ضمنها مسكويه ما يلي:

(أ) تظهر قوة الاحساس باللذة والألم.

(ب) تتولد فيها قوة تشقت من الاولى، ولكنها أكثر حدة، هي قوة الشهوات.

(ج) تبرز في أفق نفس الطفل، قوة تدفعه الى تحقيق ما في نفسه، وأن يلتبس بخلف الوسائل والسبل لفعل ذلك وهي قوة الشوق.

(د) تتدرج نفسه في نمو ملكاتها الى قوة التمثيل التي تساعد على أن يرسم لنفسه صورا معينة، هي بمثابة مشالات يتشوق اليها

(مسكويه، ١٩٥٩، ص ٥٧-٥٨).

٣ — بعد هذه القوة العامة البهيمية التي تهتم بالغذاء، وبكل ما يساعد الانسان في حياته الدنيوية، تظهر في نفس الصبي القوة السبعة ويسميتها مسكويه قوة الغضب، يدفع الطفل بها عن نفسه ما يؤذيه، مرة بنفسه اذا استطاع، وأخرى بوالديه بالبكاء ان عجز. (مسكويه، طهارة النفس ورقة ٣٩ والتهذيب ص ٥٨).

٤ — ثم تظهر فيه قوة أرقى مما تقدم، هي قوة التمييز، وهي القوة التي تميزه عن غيره من سائر الموجودات باعتباره انسانا، وهي قوة العقل، وأول مظهر لها عند الطفل هو الحياء (مسكويه، ١٩٥٩، ص ٥٨). ويعرف مسكويه الحياء بأنه «الخوف من ظهور شيء قبيح من الطفل، وهو الاحساس بالجميل والقبيح وإثارة الاول على الثاني، ويرى أن هذه القوى، تتسلسل، وسابقتها ضروري للاحقها، وكلها لازمة ليصل الطفل الى حياة الفضيلة (عبدالعزیز عزت، ١٩٤٦، ص ٣٤٢).

وحياة الفضيلة عند الطفل لها شرطان:

شرط نفسي وشرط اجتماعي، أما الاول فيتلخص في الانطباع على الخير بالسليقة، بظهور الحياء والاطراق الى الأرض (مسكويه، ١٩٥٩، ص ٥٨). أما من كان وقاحا بطبعه كان مثله كالتنزيير الوحشي لا يطمع في رياضته، لأن نفسه العاقلة تصير خادمة لنفسه البهيمية، ولنفسه الغضبية (المرجع السابق، ص ٦٧).

أما الشرط الاجتماعي فيتلخص في ابعاد

الصبي عن رفاق السوء، ومخالطة الفاسدين بطبعهم، لأن المخالطة تفسد بالمقارنة والمداخلة (المرجع السابق، ص ٥٩). هذا من جهة ومن جهة أخرى مصاحبتهم للأخيار وأهل الحكمة، فإن المثل الصالح، والفعل الصالح مع الأخيار، يقوي النفس، ويشجعها على الفضائل (مسكويه، ١٩٥٢، ص ٢٨٦). وأيضا ابعاد الأطفال من حين الى حين عن محيط الأسرة، أي المحيط الذي يجدون فيه عادة كثيرا من العطف والتنعم الى محيط آخر، يشعرون فيه بشيء من الجفاء والخشونة، وعدم التواكل والاعتماد على الأهل (عبدالعزیز عزت، ١٩٤٦، ص ٣٤٢).

الذاكرة والتحصيل:

يقول مسكويه «أما العلوم والمعارف، فالانسان يحصلها في شبابه بالخرزانة له، يرجع اليه متى شاء، ويستخرج منه ما أراد: أعني القوة الذاكرة التي تستوعب الأمور التي تستفاد من خارج، أعني من العلماء والكتب، أو التي تستفاد بالفكر والروية من داخل» (مسكويه وأبو حيان التوحيد، ١٩٥١، ص ١٧٣).

ومعنى ذلك أن مسكويه قسم التحصيل الى قسمين:

١ — تحصيل للعلوم من الخارج وهو في ذلك يستخدم الحواس ويخزن هذه العلوم في الذاكرة، وهذا ما يوضحه مسكويه في موضع آخر بقوله «فما يأتيها (النفس) من الحس فإنها تخزنه في شبابه بالخرزانة لها أعني موضع الذكر» (المرجع السابق، ص ١١١).

٢ — تحصيل للعلوم من الداخل باسترجاعها

من العقل، وتكرار تصوره لها، حتى تنطبع في ذهنه، ولذا فإن العلم في نظر مسكويه يحتاج الى كثرة التدريس لأنه في أول الأمر يحصل منه الشيء الذي يسمى «حالا»، ثم بعد ذلك بالتكرار يصير «ملكة» ثابت (المرجع السابق، ص ١١١).

علم النفس العلاجي عند مسكويه:

قسم مسكويه في كتابه «التهذيب» علم النفس العلاجي الى قسمين: قسم يبغى حفظ صحة النفس، وإبقائها سليمة، بعيدة عن الأسقام، فمهمته المنع، وينظر الى المستقبل. والآخر يبغى خلاصها، بشفاء ما قد ينتابها من الأمراض حتى تعود الى صحتها، وتستقيم حياتها بعد أن ساءت وفسدت، ومهمة هذا القسم الانقاذ، وينظر الى الماضي، وهو يسمى القسم الاول «تهذيب الاخلاق» ويسمى القسم الثاني «تطهير الاعراق» (مسكويه، ١٩٥٩، ص ص ٢٠٤-٢٠٥) وهو لا يضع علاجه النفسي لكل الناس، لأن نفوسهم تختلف، ويرى أن طبائعهم تنحصر في ثلاثة أنواع (وهو يتأثر في هذا بجالينوس). فهناك قوم خيرون بطبعهم، وهؤلاء قليلون. ومن الناس من طبع على الشر، فهم لا يعرفون طريق الفضائل والخير، ومن الناس من هو وسط بين هؤلاء وأولئك، يميلون تارة الى الخير وتارة الى الشر، حسب الظروف والتأثيرات التي يخضعون لها. (المصدر السابق، ص ص ٣٨-٣٩)

والعلاج النفسي في نظر مسكويه لم يوضع لأصحاب الشر، فهؤلاء لا سبيل الى علاجهم، واصلاح نفوسهم، فلقد تأصل فيهم الشر، وهو

ملازم لهم دائما أبدا. وهو كذلك لم ينشأ للخيرين بطبعهم، فهم يأتون الخير دائما بحض سليقتهم، ولا سبيل الى فسادهم.

ولما كان المتوسطون يترددون بين الخير والشر، وكانت طبائعهم قلقة لا تثبت على حال معينة، وجب أن يوضع لهم علاج نفساني، يطبق في جزئه الاول (أي لحفظ الصحة النفسية) اذا مالوا نحو الخير، وفي جزئه الثاني (أي لشفاء أمراضهم النفسية) اذا اتجهوا نحو الشر. (المرجع السابق ص ٢٠٥).

أما عن «تهذيب الأخلاق» وهو الجزء الاول من العلاج النفسي عند مسكويه فهو يتناول أمرين هامين:

أولاً: تهذيب الغايات التي يسعى اليها الانسان، وهي اللذات الجسمية، واللذات المادية، باحلال غايات أخرى، بموضوعاتها تتناسب وقدرة الانسان باعتباره كائناً عاقلاً، هي حب العلم والاقبال على الفضيلة.

ثانياً: تهذيب الملكات النفسية التي تساعد الانسان على مقاومة عناصر البهيمية، والترقي في مراتب السعادة. (المرجع السابق ص ٢٠٤).

ويرى مسكويه أن الانسان بفطرته يميل الى اللذات الجسمية، ولكنه يعتبر أن الاسراف فيها، مضر كل الضرر، ويؤدي الى الخلاعة والعبث والاضطراب، ولهذا وجب أن يكتفي بالقدر الضروري الصالح، الذي لا ينتج عنه السوء.

والسبب الأساسي في الاقبال على هذه اللذات هو معايشرة أهل السوء، ولهذا وجب البعد عن مخالطتهم وعدم القرب من مجالسهم.

ولهذا أيضا، وجب على من يريد حفظ صحته أن يركن الى غاية تتفق وطبيعته الخاصة، أي طبيعة العقل والتفكير، وهي محبة العلم، لأن النفس متى تعطلت وعلقت الفكر، والفوضى وراء المعاني، تبلدت وتبلهت، وانقطعت عنها مادة كل خير. وإذا ألفت الكسل وتبرمت بالروية، واختارت العطلة، قرب هلاكها، لأن في عطلتها هذه، انسلخا عن صورتها الخاصة بها، ورجوعا منها الى رتبة البهائم، وهذا هو الانتكاس في الخلق. (المرجع السابق ص ٢٠٨).

وهذا بعكس من يقبل على العلم، فإن ذهنه يتفتح، ويستقيم نظره في أمور دنياه، ويمكنه أن يبلغ كماله وسعاده.

والانسان قد لا يقبل على اللذات بالفعل، وإنما يأتيناها في نفسه، بإثارة ذكرياتها اليه، وتحريك الذاكرة نحوها لغمر النفس، فيسودها الاضطراب، لأن هذه الذكريات تتعلق عادة «بالقوة الغضبية»، و«القوة الشهوية» للنفس، وهي قوى ترتبط كل الارتباط بالجسم والمادة، ولا منفعة منها الا اذا سادها العقل، فتتحريك هذه الذكريات، يجعل النفس تشاق اليها، واذا اشتاقت اليها اضطربت واختل توازن قواها، ويمثل مسكويه من يفعل ذلك بمن يثير بهائم جماعة، ويهيج سباعا ضارية. (نفس المصدر، ص ٢١٦) ولهذا أوجب ألا نتذكر أعمال هاتين القوتين. بل يجب أن ينبعثا بالطبيعة، وحيث يجب أن يتدخل الفكر لمحو عليتهما، مع تقدير ما يسمح به لهما في الامور الضرورية، وعليه فاللذات الماضية، إثارتها تزعج النفس، ويجب على العاقل ألا يعيدها، وإنما يبحث عن سبيل ابعادها، واذا

تطلبت الطبيعة أحيانا أن تثار، فليأخذ الانسان منها بالقدر المعقول للضرورة الصالحة، لأن من استعمل النفس الناطقة في خدمة عبيدها، فقد عكس الوضع الطبيعي لقوى الانسان، ووقع الظلم على نفسه، وكان جائرا على ذاته (المرجع السابق، ص ص ٢١٦-٢١٧).

وهناك من الناس من يضع لنفسه غاية تتعلق باللذات المادية واللذات الخارجية الاجتماعية، كالغناء، والثروة، والجاه، والزينة والمواكب (المرجع السابق ص ٢١١)، ولكن هذه غاية ثانوية، لأنها لا تدوم، وأثرها عارض زائل، وصاحبها كثير الخوف، قلق النفس، مجهد البدن.

ويذكر مسكويه، أن كثيرا من الملوك الذين يحوزون كل هذه النعم، لا ينعمون بالسعادة الحقة، التي هي السعادة النفسية الداخلية، وإنما هم دائما في هم وغم. ولهذا ينصح مسكويه بأن يقنع الانسان في الامور الخارجية، وأن يكفني بالنعم النفسانية، التي هي في ذواتنا، فهي ترتقي بنا رويدا رويدا الى كمالنا الخاص والعام.

وأما عن «تطهير الأعراق» وهو الجزء الثاني من العلاج النفسي عند مسكويه: فإن مسكويه يفترض وجود أمراض نفسية، يصح أن تنتاب الانسان، وأن هذه الأمراض لها أسباب نفسية، اذا عرفت أمكن أن تشفى النفس. ومسكويه في ذلك قد سبق ياسبرز Jaspers في تأكيده على صدور ما هو سيكولوجي عما هو سيكولوجي (ياسبرز Jaspers، ١٩٦٣). كما أنه سبق كل المعالجين النفسيين في تأكيدهم على أهمية الاستبصار بالنسبة للعملية العلاجية.

وأعراض النفس فيما يرى مسكويه هي
رذائلها، وهو يحددها بثمانية :

التهور - الجبن، الشرة - الخمود، السفه - البله،
الجزر - المهانة.

وهي أطراف الفضائل الكبرى أي :

الشجاعة - العفة - الحكمة - العدل.

لأن مسكويه يعرف الفضيلة - كما نجد ذلك
عند أرسطو - بأنها وسط قويم بين حدين
متعارضين.

وأسباب الأمراض النفسية : عند مسكويه،
هي شهوات النفس الجامحة المختلفة، ويرى
مسكويه أن أهمها ثلاثة :

الغضب - الخوف - الحزن. (مسكويه،
١٩٥٩، ص ٢١).

أما عن الغضب فيعرفه مسكويه بأنه
حركة للنفس، يحدث بها غليان دم القلب،
شهوة للانتقام، فإذا كانت هذه الحركة
عنيفة، ثار الغضب وأضرهما، فاحتد غليان دم
القلب، فامتلاأت الشرايين والدماغ دخاناً
مظلماً مضطرباً، يسوء منه حال العقل،
ويضعف فعله.

لذلك فإن الغضب يعمي الإنسان عن
الرشد، ويضنه عن الموعظة، بل تصير الموعظة
في تلك الحال سبباً للزيادة في الغضب، ومادة
للهب والتأجج. وليس يرجى له في تلك الحال
حيلة. (المرجع السابق، ص ٢٢٥).

ويرى مسكويه أن الغضب في مبدأ أمره
ليس واحداً في كل الناس، وإنما هو يختلف
حسب المزاج الخاص. فمن كان مزاجه عنيفاً
حاراً. كان الغضب إليه أسرع، أما صاحب

المزاج الهاديء فحالته على العكس، وهذا في
أول الغضب ومبذته، ولكن الحال تكاد
تتقارب عند كل منهما، إذا اشتد واحتدم.
ويعتقد مسكويه أن النفس إذا استشاطت
غضباً، فليس يرجى إخمادها، وتهدئتها. ولهذا
كان علاج الغضب في مبذته لا بعد قيامه.

والغضب في نظر مسكويه، بعيد عن أن
يسمى رجولة، لأنه ليس به أي سمة من
الشجاعة. والغضب ليس بدرجة واحدة عند
الرجال والنساء، وليس بدرجة واحدة بالنسبة
لللسن والطبع، فمسكويه يرى أنه يعظم في
النساء عنه في الرجال، لحدة في شعورهن. وفي
الصبيان لأن صغر عمرهم يجعلهم أسرع وأميل
إلى الغضب من الرجال. والشيوخ كذلك أكثر
غضباً من الشبان. لضعف أعصابهم، وتبلبل
أفكارهم وتعلقهم بتافه الأمور. والغضب أكثر
عند المرضى منه عند الأصحاء، ويكثر أيضاً
عند أصحاب الشر، إذا تعذر عليهم الحصول
على ما يشتهون، فالبخيل إذا فقد شيئاً من
ماله، تسرع إلى الغضب على أصدقائه ومخالطييه.
وتوجهت تهمته إلى أهل الثقة من خدمه
وأهل منزله.

والغضب في نظر مسكويه هو أعظم
الشهوات التي تنغص على الإنسان حياته
وتوجد الاضطرابات فيها، وتدفعه إلى الشرور
والاكتئاب. ولهذا يجب أن يقاومه بمقاومة
عوامله، وهي في نظر مسكويه :

«المعجب، والافتخار، والمراء، واللجاج،
والمزاج، والته، والاستهزاء، والغدر، والضميم،
وطلب الأمور التي فيها عزة وتنافس فيها
الناس، ويتحاسدون عليها، وأخيراً شهوة
الانتقام».

فإذا أمكن للانسان أن يبعد عن نفسه هذه العوامل، قل غضبه، وهدأ باله، ولم يتعرض لتلك النتائج السيئة (المرجع السابق، ص ص ٢٢٦-٢٢٧).

ولذا وجب على الانسان أن يقهر غضبه بحلمه، ويتمكن من التمييز الصحيح، والنظر السليم، فيما يهاجمه من المكاره، حتى يحكم أساليب الانتقام بالقدر المعقول، فلا يصيبه منها أذى. فالحلم هنا هو الفضيلة المطلوبة، وهي في هذه الحالة صحة النفس.

وهناك بعد الغضب نوعان من شهوات النفس يدفعان الى الرذيلة، ويسببان مرض النفس، ولكنهما أخف وطأة من الأول وهما الخوف والحزن.

أما عن الخوف فيعرفه مسكويه بقوله «إذا كان الغضب هو حركة للنفس عنيفة قوية، يحدث منها غليان دم القلب، شهوة للانتقام، فيصبح الجبن هو مسكون للنفس عما يجب ان تتحرك فيه، وبطلان شهوة الانتقام» (المرجع السابق ص ٢٣٨). ويرى مسكويه أن للخوف كما للغضب نتائج سيئة، تؤذي النفس، وتؤدي الى أقبح النتائج في حياة الانسان. منها مهانة النفس، وسوء العيش وطمع طبقات الأندال وغيرهم من الأهل والأولاد، وقلة الثبات والصبر في المواقف التي يجب فيها الثبات، وهو أيضا سبب الكسل، ومجبة الراحة، للذين هما سبب كل رذيلة، ومن لواحقه الاستخذاء، والرضى بكل رذيلة، والدخول تحت كل فضيحة في النفس والأهل والمال، وسماع كل قبيحة فاحشة من الشتم والقذف، واحتمال كل ظلم من معام، وقلة الأنفة مما يأنف منه الناس.

ولهذا وجب أن يقم الانسان هذا الضعف النفساني، لأنه ليس بضعف متأصل في النفس، وانما يمكن معالجته والوصول الى صحة النفس المطلوبة.

وعلاج الخوف - في نظر مسكويه - على ثلاثة أنواع :

أولاً: مقاومة الكسل : بأن يوقظ الانسان نفسه بإثارة نشاطه الخاص، لأن القوة الغضبية كامنة فيه بالفطرة، ولكن ينقصها المرائ، وعادة التحقق بالفعل. وهي بهذه الحال تشبه النار تحت الرماد، اذا انقشع عنها ظهرت حرارتها وبان لهيها. ويذكر مسكويه «أنه حكى عن بعض المتفلسفين أنه كان يعتمد مواطن الخوف، فيقف فيها، ويحمل نفسه على المخاطرات العظيمة بالتعرض لها، ويركب البحر عند اضطرابه وهيجه ليعود نفسه الثبات في المخاوف. ويحرك منها القوة التي تسكن عند الحاجة الى حركتها، ويخرجها عن رذيلة الكسل ولواحقه» (المرجع السابق، ص ص ٢٣٩-٢٤٠).

وما يذكره مسكويه في ذلك هو نفس ما توصل اليه المحللون النفسيون في علاجهم للخوف من «تعريض المريض المريض للمواقف المرهوبة» (محمد عبد الظاهر الطيب، ١٩٧٧، ص ٦٢) وهو أيضا نفس ما توصل اليه المعالجون السلوكيون من علاج بالغمر Flooding في علاج المخاوف المرضية (فولبه Wolpe، ١٩٥٨).

ويرى مسكويه أنه بمثل هذه المحاولات تشار الشجاعة التي تمثل صحة النفس في هذه الحالة. وعن تأكدها يجب على الانسان المحافظة عليها دون أن يبالغ فيها بالذهاب الى

الطرفين، النهار، أو الجبن.

ثانياً: ترك التأؤم: واللجوء على عكس ذلك الى الظن الجميل والأمل القوي، لأن توقع المكروه، وظن السوء بالمستقبل والخوف من وقوعه عاجلاً أو آجلاً، من شأنه أن ينغص على الانسان حياته، خاصة وأن أمر المستقبل بيد القدر.

ثالثاً: يجب أن تتروى، وتحتاشى سوء الاختيار في الامور الممكنة، فننظر الى عواقبها، ولا نقدم عليها الا بعد تأن وتفكير، أما بالنسبة للأشياء الضرورية، فيجب على النفس أن تتحمل ضرورات طبائع الأشياء وان كانت غير سارة.

ويعرض مسكويه لنوع معين من الخوف، هو خوف الموت، ويرى أنه الجهل بمعرفة الموت على حقيقة أمره.

والموت في نظر مسكويه شيء يدل على عدل الخالق في خلقه (مسكويه، ١٩٥٩، ص ٢٥٠).

ويعطي مسكويه للخوف من الموت سبعة أسباب هي:

١ - الجهل بالموت على حقيقة أمره.

٢ - الجهل بمصير النفس.

٣ - الجهل ببقاء النفس.

٤ - الظن بأن للموت ألماً عظيماً غير ألم الأمراض التي ربما تقدمته وأدت اليه، وكانت سبب حلوله.

٥ - الاعتقاد بأن هناك عقوبة تحل بالانسان بعد موته.

٦ - ان الانسان يكون متحيراً لا يدري على أي شيء مقدم بعد الموت.

٧ - ان الانسان يأسف على ما يخلفه من المال والمقتنيات. (المرجع السابق، ص ٢٤٣).

وقد عالج مسكويه كل واحد من هذه الاسباب كما يلي:

١ - من جهل الموت ولم يدرك ما هو على حقيقته، فذلك أن الموت ليس بشيء أكثر من ترك النفس استعمال آلتها وهي الأعضاء التي يسمى مجموعها بدنًا. وأن النفس جوهر غير جسماني، وغير قابلة للفساد، وهي تخالف جوهر البدن بذاتها وخواصها وأفعالها وآثارها، فإذا فارقته بقيت البقاء الذي يخصها وخلصت من اضطراب المادة وسعدت السعادة التامة.

٢ - وأما الجهل بمصير النفس، فإن من يهاب الموت يعتقد أن جسمه اذا انحل وبطل تركيبه فقد انحلت ذاته وبطلت نفسه، وفي هذا جهل ببقاء النفس، فهو لا يخاف الموت على الحقيقة، وانما يجهل ما ينبغي أن يعلمه، فالجهل هو سبب الخوف. والموت شيء اعتباري، يجب ألا يخشاه الجهال لأنهم أموات بالفعل، ويجب ألا يخشاه الحكماء لأنهم يتحكمون في مشاعرهم فلا يثير فيهم هذا الخوف.

٣ - أما الجهل ببقاء النفس، فإن النفس بانحلال الجسم بالموت، لا تنحل، ومن اعتقد هذا فهو جاهل يهاب الموت. والانسان الذي تعشق نفسه أن تلتصق بدنه وألا تفارقه، نجده دائماً في خوف من فراقها، ونجده في غاية الشقاء لأنه لا يريد لنفسه مستقرها الطبيعي، وهو الخلاص من البدن والارتقاء الى عالم الأرواح، وانما يطلب المستحيل بدوامها عاقلة بالبدن.

٤ — أما الظن بأن للموت ألما عظيما غير ألم الامراض التي تمهد له فهذا وهم باطل، ويجب أن يعالج، لأن الألم يكون عادة للحى، والحى هو القابل أثر النفس، وأما الجسم الذي ليس فيه روح فإنه لا يألم ولا يحس، فإذا الموت الذي هو مفارقة النفس للبدن لا ألم له، لأن البدن، إنما كان يألم ويحس بأثر النفس فيه، فإذا صار جسما بلا روح فلا حس له ولا ألم.

٥ — أما خوف الموت لأجل العقاب الذي يوعده به، فينبغي أن يبين للخائف أنه ليس يخاف الموت، بل يخاف العقاب، والعقاب إما يكون على شيء..

باق بعد البدن، ومن اعترف بشيء باق بعد البدن، هو لا محالة معترف بذنوبه التي يستحق عليها العقاب، فهو إذن خائف من ذنوبه، لا من الموت. ومن خاف من ذنوبه وجب أن يحذرهما ويتجنبهما، وهي تصدر عن الرذائل وعليه فالخائف من الموت على هذه الطريقة، هو الجاهل ما ينبغي أن يخاف منه، وخائف مما لا أثر له، ولا خوف منه. وعلاج الجهل هو العلم، لأن الحكمة تنقذنا من هذه الآلام والظنون الكاذبة التي هي نتائج الجهالات.

٦ — كذلك من تهيب الموت، فهو لا يعلم ماذا يكون مصيره بعد الموت. ولكن هذا خوف لا مبرر له، ومصدره الجهل بطائع الأشياء، وعلاجه هو العلم حتى يهتدي الإنسان وتطمئن نفسه.

٧ — ومن الناس من يهاب الموت ويحزن لانه سيترك وراءه أبناءه وأهله، وسيحرم مما يملك من متاع الدنيا، ولكن مثل هذا الرجل، يجب

أن يعلم أنه يتعجل الخوف والألم، فطبيعة هذه الأشياء زائلة، وأنه لا بد من مفارقتها يوما ما، وخوفه وألمه لا يجدي شيئا، ويفرض على نفسه الغم والكآبة، بدون مبرر معقول. (المرجع السابق ص ٢٤٦ — ٢٥٣).

وهكذا نجد مسكويه في علاجه لخوف الموت يستخدم الاقناع العقلي والاستبصار بحقيقة الموقف المرهوب، وهو ما يستخدمه المعالجون النفسيون المحدثون على اختلاف اتجاهاتهم العلمية وفنياتهم العلاجية كجانب من جوانب العلاج النفسي، وإن كان أصحاب اتجاه العلاج العقلاني يعتبرونه الجانب الأساسي في العلاج النفسي (اليس Ellis، ١٩٧٧).

وبعد علاج الخوف عامة، وعلاج خوف الموت خاصة، يتحدث مسكويه عن علاج الحزن، لأن الحزن بعد الغضب والخوف، سبب قوي من اسباب امراض النفس.

ويعرف مسكويه الحزن بأنه ألم نفساني، وهو في نظره شيء عارض، وليس بحالة طبيعية متأصلة في النفس، وهو يتأثر في هذا «بالكندي» في كتابه «دفع الاحزان» فهو يراه دخيلا على الانسان ويفرض على نفسه فرضا، لأن الحزن على موت الاعزاء من الاقرباء والأصدقاء، ليس بواحد عند سائر الناس، وهم مع اختلاف درجات هذا الحزن يعودون الى حالتهم الاولى، إن عاجلا أو آجلا من السرور والاعتباط، وهذا الاستقرار يؤكد أن الحزن غير طبيعي، بل هو وقتي غير دائم.

وللحزن أسباب كثيرة، ولكنها اذا عرفت وأمكن حصرها، وجب علاجها، فهي ليست

مستحيلة مستعصية على الإصلاح. ومن هذه
الاسباب :

١ — فقدان الانسان محبوباته ومطلوباته،
والحزن على هذه الاشياء عيب في نظر
مسكويه، لانها أشياء لا تثبت على قرار.

٢ — طمع الانسان في اقتناء الفانيات، بحيث
أنه اذا امتلك شيئا منها لا يكتفي ولا يقنع،
وانما يرجو المزيد، وهو في هذا السبيل يصادف
المتعاب والآلام. ولهذا وجب الأخذ منها
بمقدار الحاجة، فالقناعة بما يملك الانسان
فضيلة لازمة.

٣ — الحسد، ويعرفه مسكويه بأنه حالة نفسية
ينعدم فيها العقل، فيطمع الانسان فيما لا
مطمع فيه، لان الحسد يجب أن يستبد
بالخيرات من غير مشاركة الناس. والحسد في
نظر مسكويه، اقبح الأمراض النفسية، لان
صاحبه يجب الشر لأعدائه، ولأصحابه على
السوء، فالحسد يريد بحسده وسوء قلبه حرمان
الناس من حق امتلاك الخيرات. (مسكويه
١٩٥٩، ٢٥٤ — ٢٥٧).

ويمكننا القول بأن العلاج النفسي الذي
يعرضه مسكويه يرتكز على العلم، فنحن نجده
يذم الجهل، ويحبذ العلم والحكمة للذين
يغذيان القوة العاقلة، ومسكويه عندما يقول
القوة العاقلة، يقصد الارادة، ولهذا فهو يقول
«أما أفعاله (الانسان) وملكانه التي يختص
بها من حيث هو انسان، وبها تتسم انسانيته
وفضائله فهي الامور الارادية، التي تتعلق بها
قوة الفكر والتمييز... والخيرات هي الأمور
التي تحصل للانسان بارادته وسعيه في الأمور
التي لها أوجد الانسان، ومن أجلها خلق،
والشروع هي الأمور التي تعوقه عن هذه

الخيرات بارادته وسعيه أو كسله وانصرافه»
(المرجع السابق، ص ١٣ — ١٤).

وعليه يتضح أن الانسان مسئول عن
كمالهِ ومسئول عن نقضه، فهو اذا شاء ارتقى
في درجات السعادة، حتى يبلغ السعادة
القصوى، وهو الذي يقرر كذلك انحطاط نفسه
الى مصاف الحيوان، اذا قلب الوضع الطبيعي،
وجعل قوة العقل تخضع لما دونها من القوى
الأخرى (عبد العزيز عزت، ١٩٤٦، ص ٣٣٨).

ومسئولية الانسان تكون أمام نفسه، لا أمام
مخلوق سواه، فهو الذي يشرع لنفسه، ويتحمل
تبعات هذا التشريع حسنة كانت أم سيئة،
وهذه المسئولية، تتعلق بحياته في هذه الدنيا،
فان أدرك مسئوليته وفق في الحياة، وبلغ
السعادة لانها متيسرة يمكن الوصول اليها، وان
لم يدركها كان شقيا غير موفق في عالم
الشهادة. (مسكويه، ١٩٥٩، ص ٩٨).

المراجع :

- ١ — ابن خلدون (١٣٢٩هـ) المقدمة. مصر.
- ٢ — بارتولد (ترجمة) حمزة طاهر (١٩٤٢)
تاريخ الحضارة الاسلامية. مصر.
- ٣ — الزركلي (١٩٥٤). الاعلام. القاهرة :
مطبعة كوستانتوماس وشركاه.
- ٤ — العاملي. (١٩٤٦). أعيان الشيعة.
دمشق.
- ٥ — عبد العزيز عزت. (١٩٤٦) ابن مسكويه
: فلسفته الاخلاقية ومصادرها. القاهرة : مكتبة
مصطفى البابي الحلبي.
- ٦ — محمد عبدالظاهر الطيب. (١٩٧٧)

- ٢٦٠٦٤ مكتبة جامعة القاهرة.
- 12 —Ellis, A.(1977). Reason and Emotion in Psychotherapy. N.J. the Citadel Press.
- 13 — Jaspers, K.(1963). General Psychopathology. Translated by Hoenig J. and Hamilton, M.W. Manchester; Manchester university press.
14. Margoliouth, D., S.(1921) The Echlipse of the abbaside Clip hate, Oxford, Vol 7. index
15. Wolpe, J. 1958 Psychotherapy by Reciprocal inhibition. Stanford : Stanford university press.
- المصصاب القهري وتشخيصه باستخدام اختبار تفهم الموضوع. طنطا : مكتبة سماح.
- ٧ — مسكويه وأبو حيان التوحيدى. (١٩٥١) الخواصل والشواصل. القاهرة. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- ٨ — مسكويه (تحقيق). عبدالرحمن بدوي. (١٩٥٢). الحكمة الخالدة (جاويدان خرد). القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
- ٩ — مسكويه. (١٩٥٩) تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق . القاهرة : مطبعة صبيح.
- ١٠ — مسكويه (بدون تاريخ) طهارة النفس. مخطوط مصور رقم ٤١٧. حكمة وفلسفة. القاهرة: دار الكتب المصرية.
- ١١ — مسكويه (بدون تاريخ) رسالة في جوهر النفس. مخطوط مصور ضمن مجموعة رقم